كلمة آل الفقيد

ألقاها الدكتور مازن محمد زهير البابا

السادة الحضور

إن طاقات المرء غير محدودة بعلم معين وباختصاص واحد. وقد يتساءل أحد ما عن الرابط بين مجمع اللغة العربية وبين علم العقاقير والنبات. لأن مفهوم اللغة العربية وثيق الارتباط بخيالية الأدب والشعر، البعيد كل البعد عن واقعية العلوم، والفرق شاسع بين الاثنين. إذن كيف يمكن للمرء أن يكون علميا، وفي الوقت ذاته أن تكون لديه ملكة الأدب وما فيه من جمالية الكلمة، وعذوبة اللفظ.

نعم أيها السادة... لقد جمع الوالد العلم والأدب معًا في آن واحد. كان رجلًا علميا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وفي الوقت ذاته كان متمكنًا من اللغة كتابةً وكلامًا. كنتُ نادرًا ما أراه يقوم بعمل ليس له علاقة بالمطالعة أو التأليف. تعودت، ومنذ نعومة أظفاري، أن أراه غارقًا بين كتبه في زاوية معينة من غرفة الجلوس، اختارها لنفسه. وبرغم صوت التلفاز وضجة المكان من تحركات أهل البيت ورنة الهاتف وما شابه، فإنه كان قادرًا على التركيز والكتابة، وكأنه في عالَمٍ خاص به، نسجه لنفسه لا علاقة له بما يجري حوله.

لقد أخذ الشعرُ من ذاكرته حيزًا، قراءةً وحفظًا، وكان دائم الترديد لأبيات تأتي في مكانها المناسب، شاهدًا لمجريات تحصل، حتى إننا كنا نتعجب من أمر تلك الذاكرة، الحاضرة للأدب والعلم، والغائبة عمّا سواها من أمور حياتية يومية.

لم يترك الوالد، الأستاذ الدكتور زهير البابا منصبًا علميًا إلا وكان له فيه حصة.

كان عضوًا فاعلًا حتى آخر أيامه، في مجمع اللغة العربية، حيث شارك في لجان مختلفة، وأغنى «مجلة المجمع» بمقالات زاخرة.

كما كان عضوًا في الموسوعة العربية بدمشق، وفي لجنة تعريب المصطلحات العلمية. وكان قد انتُخب عضوًا في الجمعية السورية لتاريخ العلوم بحلب، وفي الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب.

كما عمل على تأسيس معمل الخميرة، وهو الأول من نوعه في سورية في ذلك الحين.

وشارك في عضوية لجان متعددة لمراقبة الأدوية. وبعد حصوله على جائزة الكويت للتقدم العلمي، شارك في السنين التي تلت باختبار المرشحين لهذه الجائزة. إضافةً إلى العديد من المؤتمرات المحلية والعلمية المتعلقة بعلم العقاقير والنباتات الطبية، والتاريخ والتراث.

ولعل نبذةً بسيطة من تاريخ حياته توضح حبه للغة العربية والأدب العربي.

البداية عندما التحق بالمدرسة الجوهرية لتعليم القرآن، والتي كانت البذرة الأولى لترسيخ قواعد لغوية سليمة في ذهنه، وهو لا يزال صبيًا، ومنها إلى مدرسة التطبيقات لترسيخ لغة أخرى، وهي الفرنسية، ثم طالبًا في مكتب عنبر، ومنها إلى ثانوية جودت الهاشمي، حيث نال الشهادة الثانوية.

وبعد إنهاء المرحلة الجامعية في المعهد الطبي العربي (قسم الصيدلة)، قصد بلجيكا موفدًا للاختصاص بعلم العقاقير الطبية (نباتات طبية).

ومنذ ذلك الحين ولغاية آخر أيامه، وهو يدور في فلك النبات، مؤسسًا لكلية الصيدلة بجامعة دمشق، ثم أستاذًا متسلسلًا بالدرجات العلمية، حتى بلوغه رتبةَ أستاذٍ ذي كرسي. وكان من ضمن عمله الإشراف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. ولا ننسى شَغْله منصب رئيس قسم وعميد لكلية الصيدلة برهةً من الوقت. وأثناء ذلك عمل باحثًا في أصول النبات، وأهميته وكيفية استثماره، وفي تاريخ الطب. وكان يشدُّه تاريخ العلماء الذين كان لهم باع كبير في هذا المجال، ومؤلفاتهم والبيمارستان، حيث كانوا يعملون، وما تركوا من مخطوطات عَمِلَ بكل جهد محققًا لها. كان هذا العمل شُغْله الشاغل. وهو أمر كما تعلمون ليس باليسير، فقد كان يقضي ساعات طِوال وكأنه غافل عن الزمن.

كان له الفضل في تأليف العديد من الكتب المرجعية الهامة منها: كتاب «أقرباذين القلانسي»، وكتاب «من مؤلفات ابن سينا الطبية»، وكتب جامعية مثل: «علم النبات» و«علم العقاقير» و«تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة»، إضافةً إلى المشاركة في العديد من المعاجم والموسوعات العربية مثل: «معجم النباتات الطبية» و«معجم الصيدلة»، كما وضع فهرسًا للمخطوطات الطبية للحضارات القديمة العربية والإغريقية في المكتبة الوطنية بباريس.

إنها سلسلة طويلة ومتتابعة من العمل الجاد والمضني، رفعته إلى مصاف العلماء الذين كان جُلُّ اهتمامهم ينصب على إنتاجهم العلمي، دون انتظار أجر أو تقدير.

وأظن أن الأجيال القادمة ستجد في الآثار العلمية التي تركها ينابيع لا تنضب من عصارة جهد طويل.

رحم الله كل من وطّن نفسه للعلم، هم كثير في وطننا. لعل وجودكم هنا، أيها السيدات والسادة، هو العزاء لنا، وهو الدليل على إجلال العلماء، وهي صفة من صفات أهل الشام.

أخيرًا وليس آخرًا، لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر وعِرفان الإحسان إلى مجمع اللغة العربية، رئيسًا وأعضاءً، لرعايتهم هذا الحفل الكريم. وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس مجمع اللغة العربية. وأيضًا الشكر الجزيل إلى كل من:

- رئاسة جامعة دمشق، متمثلة بشخص الدكتور عامر المارديني.
- عميد معهد التراث بحلب، الأستاذ الدكتور علاء الدين لولح.
- أمين مجمع اللغة العربية، الأستاذ الدكتور مكي الحسني، صديقًا عزيزًا للوالد.
- الأخ والزميل، الأستاذ الدكتور سمير النوري، لكلمة الوفاء والمحبة النابعة من القلب.

- وإلى جميع الحضور الكرام من الأهل والأصحاب، كل الشكر والثناء.

رحم الله الوالد العزيز، وجعل مثواه الجنة.

إنـا لله وإنا إليه راجعون. والسلام عليكم ورحمة الله.